كلمة الله، فن الإنسان

القرآن وتعابيره الإبداعية

حرر من قبل فهميدا سليمان

مطبعة جامعة أكسفورد بالتعاون مع معهد الدراسات الإسماعيلية، 2007.

ISBN 0-19-923835-9

دليل قراءة قدم من قبل سابرينا أ داتو لقسم العلاقات المجتمعية، 2009.

يمكن أن نجد تقديس المسلم للقرآن الكريم ككلمة الله من خلال العديد من الأشكال الفنية على مر التاريخ. ومن الملفت للنظر كيف يُستخدم النص بشكل عالمي، من الأشياء المحمولة الصغيرة وحتى الصروح المعمارية العظيمة. تُعطى كتابة الكلمات والصفات الجمالية للحروف أهمية كبيرة، وهذا يمكن ملاحظته في الجهود المبذولة في الزخرفة الفخمة للمخطوطات القرآنية. يستكشف كتاب 'كلمة الله، فن الإنسان' بعضاً من هذه التعابير الإبداعية للقرآن الكريم من خلال عدد من الوسائط ومن مجموعة متنوعة من الثقافات والمناطق المختلفة من العالم.

تم الحصول على حقوق النشر من الناشر المذكور.

إن استخدام المواد الموجودة على موقع معهد الدراسات الإسماعيلية يشير إلى القبول بشروط معهد الدراسات الإسماعيلية لإستخدام هذه المواد. كل نسخة من المقال يجب أن تحتوي على نفس نص حقوق النشر التي تظهر على الشاشة أو التي تظهر في الملف الذي يتم تحميله من الموقع. بالنسبة للأعمال المنشورة فإنه من الأفضل التقدم بطلب الإذن من المؤلف الأصلي والناشر لإستخدام (أو إعادة استخدام) المعلومات ودائماً ذكر أسماء المؤلفين ومصادر المعلومات.

©2009 معهد الدراسات الإسماعيلية

ألا يتحدى القرآن الفنان، كما يتجاوز الصوفي العالم المادي- الظاهري- من أجل السعي لكشف ما يتموضع في المركز ولكنه يعطي الحياة للمحيط؟ أليس العمل الفني الرائع، مثل نشوة الصوفي، ولفتة النفس، وإثارة الروح التي تأتي من محاولة المرور بتجربة أخذ لمحة أو التودد بحميمية مع ذلك الذي لايوصف وهو وراء الوجود؟

صاحب السمو الآغا حان

في ندوة 'كلمة الله، فن الإنسان'

19 تشرين الأول 2003

إن كتاب 'كلمة الله، فن الإنسان' هو مجلد مفصل بشكل رائع لأوراق أكاديمية قدمت خلال الندوة الدولية 'القرآن وتعابيره الإبداعية' والتي عقدت بمناسبة الإحتفالات بالذكرى الخامسة والعشرين لتأسيس معهد الدراسات الإسماعيلية. وكما يشير العنوان، يدرس مجلد 'كلمة الله، فن الإنسان' التقاليد الفنية العديدة المتطورة حول القرآن الكريم، أكثر من تركيزه على التقاليد القانونية واللاهوتية والفلسفية التي أوحى بها القرآن أيضاً.

يؤكد سمو الآغاخان في ملاحظاته الإفتتاحية للندوة، التي تضمنت مقدمة عن هذه المجموعة، على أهمية تسليط الضوء على هذا الجانب من القرآن الكريم:

> 'لقد لاحظ بعض من العلماء البارزين اليوم أنه، في حين لم يعرض القرآن مذهب فن إسلامي أو ثقافة مادية، إلا أنه يقدم نظرة تخيلية في هذا الإتجاه. ومنذ وقت مبكر، ألهمت نصوصه أعمال الفن والعمارة وشكلت مواقف وقواعد قادت تطور التراثات الفنية المسلمة.'

يستكشف هذا الكتاب من خلال دراسة القرآن الكريم كجزء من الإنتاج الفني والثقافة المادية، كيف يظهر نص القرآن الكريم في مجموعة متنوعة من المساحات الإجتماعية، المحلية والعامة، وكيف يتم تناقل هذا النص ضمن وبين هذه المساحات في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي وفي مراحل متنوعة من تاريخه. غالباً ما يتسائل المؤرخون والباحثون المهتمون بدراسة المخطوطات وتجليد الكتب وفن تزيين النص، حول النظر إلى القرآن الكريم بوصفه أيقونة مبجلة، بدلاً من كونه رسالة إلهية.

يقدم كتاب 'كلمة الله، فن الإنسان' عدة مقالات عن تقليد فن تزيين النص، بما في ذلك مقالة للراحل دنكان هالدين، الأمين السابق لمكتبة معهد الدراسات الإسماعيلية، والتي يستعرض فيها المخطوطات القرآنية الرائعة والموجودة ضمن مجموعة معهد الدراسات الإسماعيلية. ومع ذلك، يبحث المجلد على نطاق أوسع في الطرق التي يبدو فيها نص القرآن الكريم خارج شكل كتاب. ومن بين الأمثلة المحفوظة زوج من الأقراط الذهبية من القرن الثاني عشر من البحر الأبيض المتوسط منقوش عليها أول ثلاث آيات من 'سورة الإخلاص' ومصباح مسجد زجاجي من القرن الرابع عشر تظهر آية النور مرسومة بالخط العريض وبحبر أزرق حول عنقه. إن هذين مجرد مثالين فقط عن أنواع المواد التي لاتحصى والتي تم من خلالها استخدام القرآن الكريم في الأعمال الفنية.

تشرح هذه المجموعة من المقالات القصيرة السهلة القراءة، الوجود الكوني لكلمة الله في الحياة الإجتماعية للأشياء. ويبدو أنها جمعت لتذكرنا 'بسورة البقرة' (القرآن 2: 115): ' فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ'. هذا هو أحد المواضيع التي تناولتها فهميدا سليمان في مقدمة هذا المجلد، حيث تمهد لكل مقال بمجال واسع من الأبحاث التي تهتم بظهور نص القرآن في الفن والعمارة والمادة الثقافية. حيث توضح قائلة:

> ... يركز الموضوع الأوسع في هذا المجلد على مقدرة النص القرآني في تقديس، أوتسييس أو إضفاء خصائص طلسمية على الأشياء والأبنية، وتشهد عدة مقالات في هذا المجلد على التفسيرات والإستخدامات المتعددة للقرآن في إيصال وجهات النظر والممارسات والمعتقدات الإسلامية الخاصة.

تتفق الملاحظات الإفتتاحية لأوليغ غرابار بالتأكيد مع هذا القول. ينقسم منهجه لدراسة كيفية إلهام القرآن الكريم للفنون إلى ثلاثة أجزاء. وتشمل نقش الإقتباسات القرآنية على الصروح المعمارية الضخمة، واستعراض أهمية فنون الكتاب في دراسة القرآن الكريم، والقرآن بوصفه نصاً للعوام معروض في منازل النبلاء والمساجد.

العرض العمومي للنص القرآني

تناقش مقالة غولرو نجيب أوغلو بأنه يجب دراسة نص القرآن الكريم على المساجد الكبرى في العواصم العثمانية، والمغولية والصفوية، ضمن السياق السياسي للإيديولوجيات المتنافسة وليس فقط فيما يتعلق بشكل النص. وتهتم نجيب أوغلو خصوصاً بالنقوش القرآنية في المساجد العثمانية التي أشرف على بنائها رئيس المهندسين المعماريين في البلاط، سنان، بين عام 1539 و 1588. تركز أطروحتها على أن سنان كان أساسياً في 'خلق لغة زخرفية روائية' كتبت بها نقوش المسجد بخط كبير وواضح وبسيط.

وكان هذا خروجاً عن تقاليد المساجد العثمانية في القرن الخامس عشر التي أكدت على الشكل على حساب المحتوى. حيث ظهرت فيها النصوص متداخلة ومتراكبة وعكسية، واستخدمت أنواع مختلفة من النصوص، بما في ذلك 'الإبتهالات التوحيدية'، و'أسماء الله الحسنى'، وكذلك مقتطفات من الآيات القرآنية. تتوضح لغة سنان الزخرفية الجديدة بشكل أفضل في دراسة النقوش في مسجد السليمانية في اسطنبول، ومسجد السليمية في أدرنة كما نرأى في صور التفاصيل الملونة الدقيقة لهذه المباني.

تقارن نجيب أوغلو 'برامج نقوش' سنان في المساجد العثمانية مع تلك التي لمساجد الصفويين، والتي تجسدت في مسجد شاه في أصفهان، ومساجد المغول، كما دُرست في المسجد الجامع في دلهي. وتخلص إلى أن النص القرآني عُرض في مساجد في هذه المراكز الإمبراطورية الثلاثة من أجل القيمة السياسية وكذلك الجمالية. فهو يوضح التوترات السياسية والدينية التي كانت تجري خارجياً بين البلاطات الإمبراطورية.

يتضمن وصف هوليا تزكان لأغطية الكعبة الموجودة في قصر توب كابي في اسطنبول عرضاً تاريخاً موجزاً للتوترات السياسية المحيطة بشرف تقديم الغطاء المزخرف لأقدس مكان عام. وتوضح التغيرات في لون وتصميم أغطية الكعبة على مدى عدة قرون. وتشمل غطاء قماش خراساني أبيض وأحمر، وآخر من الساتان الأبيض والأخضر مع 'عمل هندي' وغطاء كعبة رائع مطرز بالمجوهرات والذي كان قد نسج في مصر بأمر من الخليفة الفاطمي المعز، أنتج على الأرجح في إحدى ورشات النسيج الفاطمية، والمعروفة بإسم 'دار الكسوة'.

ويتضح لنا أيضاً أن الصورة المألوفة للمكعب المكي الأسود الأملس كانت قد انتشرت فقط في وقت متأخر من القرن الثاني عشر أو في أوائل القرن الثالث عشر عندما أصبحت أغطية الكعبة تنتج حصراً باللون الأسود. على الرغم من أن التغيير في النقوش القرآنية هو أقل وضوحاً في سردها، إلا أن تزكان تحليلاً شاملاً للنصوص الموجودة على أغطية الكعبة في قصر توب كابي، وكلها تتضمن 'الشهادة' ومجموعة منتقاة من آيات القرآن الكريم.

لا يقتصر العرض العام للآيات على المساجد أو المناطق التي يستطيع الناس القراءة والكتابة باللغة العربية أو الفارسية. تقترح مقالة هيوسم تان المميزة عن النقوش القرآنية في المنحوتات الخشبية في منازل الملايو بأن نصوص آيات معينة يفهم على أنه جزء من الأخلاق الروحية الموجودة والتي يبنى على أساسها المنزل التقليدي في الملايو. ووفقاً لعلم الكونيات عند الملايو، فإن أساسات هذه المنازل ترتب بعناية من أجل تعظيم قوة الحياة الحيوية أو'الروحية' للمنزل. طبيعة الخشب وطريقة دعم الركائز لبعضها البعض هي في أقصى درجات الأهمية. توضح تان بأن مكان ومضمون 'الآيات' المنقوشة فوق الأبواب والنوافذ يمكن أن يفهم بأن له القدرة على حماية من يعيش في مثل هذه الأماكن المحصنة روحياً، وهم عادةً عائلات الأرستقراطيين والسلاطين.

النص القرآني على الأشياء

لم تعرض كتابات من القرآن الكريم على المباني فقط، وإنما تظهر أيضاً على مجموعة متنوعة من الأشياء ضمن المساحات الداخلية. كانت 'الآيات' القرآنية ولا تزال تنقش على المعادن المختلفة لصنع التعويذات، أو تنسج على قطع الملابس وتحفر أيضاً في المرايا التي تحمل باليد، مما يوحي بعلاقة حميمة جداً بين الكتاب الإلهي والمؤمن.

يتتبع مقال فينيشا بورتر عن التمائم في المتحف البريطاني العلاقة بين الأسطورة المسيحية 'النائمون السبعة في أفسس' و'سورة الكهف'(القرآن 18)، والتي تصف مغامرة عدد من الشبان فروا من الإضطهاد الديني مع كلبهم، والتجؤوا إلى الكهف. تتناول بورتر عدة تفسيرات وتوضيحات لهذه 'السورة' التي تؤكد على القدرة الطلاسمية لأسماء 'النائمون

السبعة'. كانت هذه الأسماء السبعة، مع اسم الكلب، قطمير، تنقش على التمائم الذهبية التي كانت تلبس كقلادات أو تنسج في الملابس لحماية مرتديها من سوء الحظ والأذى، لا سيما خلال السفر.

وقد دُرس قوة 'الآيات' في القرآن الكريم على الحماية في دراسة آن ريغورد 'المرآتان السحريتان'، أنتجت إحداهما على الأرجح في القرن الثالث عشر في إيران، وحالياً هي موجودة في متحف اللوفر وأخرى استخدمت في عام 1990 في اليمن. على الرغم من أن هناك القليل من الأدلة التاريخية حول استخدام مرآة القرن الثالث عشر، والتي كان تصميمها عبارة عن مزيج من الأشكال الزخرفية الكورية والنقوش القرآنية، تناقش ريغورد بأنه:

> استناداً إلى الأدلة المتوفرة يبدو أن ممارسة إعادة نقش التصاميم وزخرفات الطلاسم التي ظهرت على السطح المستوي لمرايا الجزء المبكر من القرن الثالث عشر كانت ممارسة شائعة في المجتمعات الشيعية في إيران القرن الخامس عشر وما بعده.

ومع ذلك، يوضح عملها الميداني في اليمن، استخداماً آخر للمرايا السحرية: فقد تم استخدامها في العلاجات الطبية لأمراض معينة، مثل الشلل الوجهي.

أبرزت دراسة الفنون في جنوب غرب نيجيريا لإسماهيل أكيند جيموه، استخدام الكتابة الخطية لآيات من القرآن الكريم. يدخل بنا جيموه إلى عالم الفن القرآني والذي تبدو فيه العناصر الزخرفية المستخدمة لتجميل مخطوطات القرآن الكريم مرئية بأشكال مختلفة، بما في ذلك شهادات الولادة والقمصان والقبعات الرجالية. وقد أنتج علماء الدين الإسلامي من جماعات اليوروبا نسخاً من القرآن الكريم تميزت بجمال أصيل، حيث استخدم فيها أوراق وأحبار وأساليب خط فريدة من نوعها ومصنعة محلياً.

تركز هذه المجموعة من المقالات على إنتشار المقاطع القرآنية في المحيط المحلي، وهي بذلك تقدم طباقاً مهماً للكم الكبير من العمل عن عرض الكلمة الإلهية للعموم.

تستكشف مقالات أخرى الأشياء المادية التي لا يمكن أن تقتصر على المساحات العامة أو على الصعيد الداخلي، ولكن قد يكون لها أصداء في كليهما. وتشمل اللافتات العسكرية، والنقود المعدنية ومخطوطات القرآن الكريم، والتي يتم تداولها في مجال واسع من المناطق.

من الرموز الهامة لهذا النوع من التداول نذكر عملة منقوش عليها كتابة مقدسة. يقدم لنا ألنور جهانجير ميرشانت أول تحليل منهجي للنقوش القرآنية على النقود الفاطمية في دراسة مستفيضة عن الأنواع الخمسة عشر من النقود المعدنية المحفوظة من عام 913م إلى 1095 م. إنه يقدم تاريخاً للعملات في عهد الفاطميين مع رسوم توضيحية ملونة لوجهي كل نوع من العملات، مع ملاحظات مفصلة، بما في ذلك ترجمات لنصوصها.

من الأشياء المادية الأخرى التي طبع عليها كل من شعارات الدولة وكلمة الله نذكر اللافتات العسكرية، كالتي وصفتها مريم علي- دي- أونثاغا. يسعى مقالها إلى تنقيح أصول شعار محدد، هو شعار لاس هوليغاز، الذي استخدم من قبل حكام جنوب إسبانيا المسلمين في العصور الوسطى. بعد تحليلها للكتابات القرآنية، والمواد المستخدمة والعرض الفريد من نوعه للنص المعكوس على هذا الشعار، فهي تدحض إسناد هذا الشعار إلى أوائل القرن الثالث عشر، وتؤكد أنه قد صُنع في وقت لاحق، في القرن الرابع عشر تحت حكم المرينيين. ولا يزال الشعار موجوداً في المخيلة الوطنية لماضي اسبانيا إذ أن نسخاً طبق الأصل للشعار تعرض من قبل المسؤولين العسكريين في مهرجان ديني سنوي حول الدير الذي يحفظ الشعار الأصلي.

الأغراض الجمالية للنص القرآني

لقد ثُمّن نص القرآن الكريم لقيمته الجمالية أيضاً، بدلاً من استخدامه في الممارسات السياسية المشروعة أو الحصول على النعمة الإلهية بالصحة الجيدة. يقدم آيز تورغوت في مقال عن الفنانين المسلمين المعاصرين ومحاولتهم وصف خط اليد من خلال وسائل إبداعية جديدة، مثل الصور المصممة ألكترونياً والرسم بالإصبع، تعطي مقالة تورغوت نظرة إلى عالم يستطيع الشخص أن يسعى من خلاله لخلق شيء جديد وأصلي بمواد من تراثه. تجبر ثقافة المخطوط الإستثنائية لدى المسلمين العديد من العلماء للنظر في السبل التي تعرض فيها الروح الإبداعية للفنانين نص القرآن الكريم.

تشهد اختيارات عديدة في هذا المجلد على كيفية تعديل التقاليد الفنية الإقليمية للشكل المادي للكتاب والتي انتشر من خلالها النص العربي الثابت في جميع أنحاء العالم. يبين لنا تحليل أنابيل تيه غالوب التوضيحي المفصل لنسخ من القرآن الكريم من جنوب شرق آسيا، تزيينات الكتاب التي كانت مشرقة ومفعمة بالحيوية ومميزة للملايو. تكشف دراسة ماري إفثيميو للملاحظات الهامشية الفارسية على القرآن الكريم التي حُفظت في معهد البحوث في طشقند، في أوزبكستان، كيف تم دمج القرآن الكريم في الصلوات الإقليمية لتحقيق رغبات المرء وإبقاء الأذى بعيداً.

يمثل فهرس نسخ القرآن الكريم المحفوظة في معهد الدراسات الإسماعيلية جزءاً رئيسياً لهذا القسم، وقد حضرها الراحل دنكان هالدين. يصف هالدين الإنتاج والتغليف والزخرفة لمجموعة صغيرة من النسخ العديدة للقرآن الكريم في مجموعة المعهد. يذكر من بين هذه النسخ "القرآن الأزرق" الشهير، الذي تتناثر أجزاءه في مجموعات في جميع أنحاء العالم. يوجد لدى معهد الدراسات الإسماعيلية صفحتين من هذا المخطوط بحروف من الذهب على رق مصبوغ بالأزرق، الذي كان يتم إنتاجه على الأرجح في شمال أفريقيا بين القرنين التاسع والعاشر.

هناك أيضاً العديد من النسخ الرائعة للقرآن الكريم من الفترة الصفوية بما في ذلك صفحة جميلة مضيئة مكتوبة بخط 'النستعليق' الدقيق والواضح على ورقة سمنية اللون محاطة بحدود ورقة زرقاء باهتة مزينة بتمرير زخرفي من الأزهار الذهبية. وكذلك نذكر القرآن الكريم القاجاري المكتوب على لفافة صغيرة، عرضها 12.5 سم وطولها 5.75 متر، بخط صغير يسمى الخط الغباري والتي يمكن للمسافر طيها وحملها في الحقيبة أو الجيب. يقدم هذا مثالاً على الكيفية التي يمكن أن يكون بها القرآن الكريم محمولاً.

خاتمة

يشهد كتاب 'كلمة الله، فن الإنسان' على الروح الخلاقة للقرآن الكريم التي ألهمت مختلف الفنون، وبصيغ متنوعة على الصعيد الإقليمي. تعتبر هذه المجموعة أيضاً بمثابة دليل ومرجع مفيد لأولئك المهتمين في القراءة عن هذا الموضوع الرائع بمزيد من التفصيل وذلك بإحتوائها على مجموعة شاملة من المصطلحات، وملحق بالإستشهادات القرآنية ومقالات مشروحة شاملة.

بإختصار، يقدم كتاب 'كلمة الله، فن الإنسان' إسهاماً كبيراً في دراسة المظاهر المرئية للقرآن الكريم في الثقافة الإسلامية منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا. إن هذا الكتاب المنقح بدقة والموضح بسخاء، هو الأكثر إثارة للإعجاب لوسائل الإعلام المتنوعة والنطاق الجغرافي المتمثل في المساهمات الفردية. لقد كان المسلمون في مناطق متفرقة مثل نيجيريا وشبه جزيرة الملايو، ولا يزالون مفتونين بالتحدي المتمثل في إعطاء شكل بصري لكلمة الله الموحى، والذي ينبغي أن لايكون مفاجئاً، ولكن ما قد وُضّح بشكل فعال جداً في هذا الكتاب هو العدد الذي لا يحصى من الطرق التي اعتمدها الخطاطون (والحرفيون) والطرق التي أثرت بها التقاليد الفنية الأصلية على هؤلاء الممارسين.

مراجعة كتاب ماركوس سي. ميل رايت، 'مجلة الدراسات الإسلامية'، المجلد 20 العدد 1، كانون الثاني 2009.